العجوزان

ـ ٣ ـ

قال المحدِّث : وتبيَّن في العجوز (ن) أثرُ التَّعب ، فتوجَّع ، وأخذ يئنُّ كأنَّ بعضه قد مات لوقته . . . أو وقع فيه اختلالٌ جديدٌ ، أو نالته ضربةُ اليوم ؛ والشَّيخ متى دخل في الهَرَم ؛ دخل في المعركة الفاصلة بينه وبين أيَّامه .

ثمَّ تأفَّف ، وتململ ، وقال : إنَّ أوَّلَ ما يظهر على مَنْ شاخ ، وهرِم ، هو أنَّ الطَّبيعة قد غيَّرتْ القانون الَّذي كانت تحكمه به .

قال الأستاذ (م) : إنَّ صاحبنا كان قاضياً يحكم في المحاكم ؛ وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشَّيخوخة (مُطَبِّقةً فيها) بعضَ المواد من قانون العقوبات ، فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثَّالث .

فضحك (ن) وقال : قد عرفنا « الحبس البسيط » و « الحبس مع الشغل » فما هو هذا الحبس الثَّالث ؟

قال : هو « الحبس مع المرض » .

قال (ن) : صدقتَ لعمريَ ! فإنَّ آخر أجسامنا لا يكون إلا بحسابٍ من صنعة أعمالنا ؛ وكأنَّ كرسيَّ الوظيفة الحكوميَّة قد عرف : أنَّه كرسيُّ الحكومة ، فهو يضرب الضَّرائب على عظام الموظَّفين . . . أتدري معنى قوله تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ [الحج : ٥] ولمَ سمَّاه : الأرذل ؟

قلنا : فَلِمَ سمَّاه كذلك ؟

قال : لأنَّه خَلْطُ الإنسان بعضه ببعض ، ومَسْخُه من أوَّله إلى آخره ، فلا هو رجلٌ ، ولا شابٌّ ، ولا طفلٌ ، فهو أردأ ، وأرذل ما في البضاعة .

فاستضحك الأستاذ (م) وقال : أمَّا أنا ؛ فقد كنت شيخاً حين كنت في الثلاثين من عمري ، وهذا هو الذي جعلني فتىً حين بلغت السَّبعين .

قال (ن) : كأنَّ الحياة تصحِّح نفسها فيك .

قال : بل أنا أكرهتها أن تصحِّح نفسها ؛ فقد عرفتُ من قبل أن سَعَة الإنفاق في الشباب هي ضائقة الإفلاس في الهَرَمِ ، وأيقنتُ : أنَّ للطَّبيعة (عدَّاداً) لا يخطئ الحساب ، فإذا أنا اقتصدت ؛ عَدَّت لي ، وإذا أسرفتُ ؛ عدَّتْ عليَّ ؛ ولن تعطيني الدُّنيا بعد الشَّباب إلا ممَّا في جسمي ؛ إذ لا يعطي الكونُ حيّاً أراد أن ينتهي منه ، فكنت أجعل نفسي كالشَّيخ ؛ الَّذي تقول له الملذَّات الكثيرة : لستُ لك ؛ ومن ثمَّ كانت لذَّاتي كلُّها في قيود الشَّريعتين : شريعة الدِّين ، وشريعة الحياة .

قال : وعرفتُ أنَّ ما يسمِّيه النَّاس وَهنَ الشَّيخوخة لا يكون من الشَّيخوخة ، ولكن من الشَّباب ؛ فما هو إلا عملُ الإنسان في تسميم جسمه ثلاثين ، أو أربعين سنة بالطَّعام ، والشَّراب ، والإغفال ، والإرهاق ، والسُّرور ، والحزن ، واللَّذَّة ، والألم ؛ فكنت مع الجسم في شبابه ؛ ليكون معي بعد شبابه ، ولم أبرح أتعاهدُه كما يتعاهد الرَّجل دارَه : يزيد محاسنها ، وينفي عيوبها ، ويحفظ قوَّتها ، ويتَّقي ضعفها ، ويجعلها دائماً باله ، وهمَّه ، وينظر في يومها القريب لغدها البعيد ، فلا ينقطع حسابُ آخرِها ، وإن بعُدَ هذا الآخر ، ولا يزال أبداً يحتاط لما يخشى وقوعه ؛ وإن لم يقع .

قال العجوز (ن) : صدقت والله ! فما أفلح إلا من اغتنم الإمكان ، وما نوع الشَّيخوخة إلا من نوع الشَّباب ؛ وهذا الجسم الإنسانيُّ كالمدينة الكبيرة فيها (مجلسهما البلديُّ) القائم على صيانتها ، ونظامها ، وتقويتها ، ورئيسُ هذا المجلس الإرادة ، وقانونه كلُّه واجباتٌ ثقيلةٌ ، وهو كغيره من القوانين : إذا لم ينفذ من الأول ؛ لم يُغنِ في الآخر .

قال الأستاذ (م) : وكلُّ جهازٍ في الجسم هو عضوٌ من أعضاء ذلك (المجلس البلديّ) ؛ فجهاز التَّنفُّس ، وجهاز الهضم ، والجهاز العضليُّ ، والجهاز العصبيُّ ، والدَّورةُ الدَّمويَّة ، هذه كلُّها يجب أن تترك على حرِّيَّتها الطَّبيعيَّة ، وأن تعان على سنَّتها ، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوةٍ من لذَّةٍ ، أو مفسدةٍ من زينةٍ ، أو مطمعةٍ في رفاهيَّةٍ ، أو دعوةٍ إلى مدنيَّةٍ ، أو شيءٍ ممَّا يفسد حكمها ، أو يعطِّل عملها ، أو يضعف طبيعتها .

والقاعدة في العمر : أنَّه إذا كان الشَّباب هو الطُّفولةُ الثَّانية في براءته ، وطهارته ؛ كانت الشَّيخوخة هي الشَّباب الثَّاني في قوَّتها ، ونشاطها ؛ وما رأيتُ

كالدِّين وسيلةً تجعل الطُّفولةَ ممتدَّةً بحقائقها إلى آخر العمر في هذا الإنسان ؛ فسرُّ الطُّفولة إنَّما هو في قوَّتها على حذف الفضول ، والزَّوائد من هذه الحياة ، فلا يُطغيها الغنى ، ولا يكسرها الفقر ، ولا تذلُّها الشَّهوة ، ولا يُفزعها الطَّمع ، ولا يولها الإخفاق ، ولا يتعاظمها الضُّرُّ ، ولا يخيفها الموت ؛ ثمَّ لا تملُّ ؛ وهي الصَّابرة ، ولا تبالغ ؛ وهي الرَّاضية ، ولا تشكُّ ، وهي الموقنة ، ولا تسرف ؛ وهي القانعة ، ولا تتبلَّد ؛ وهي العاملة ، ولا تجمد ؛ وهي المتجوِّلة ؛ ثمَّ هي لا تكلِّف الإنسانيَّة إلا العطف ، والحبَّ ، والبشاشةَ ، وطبائع الخير ؛ التي يملكها كلُّ قلبٍ ، ولا توجب شريعتها في المعاملة إلا قاعدة الرَّحمة ! ولا تقرِّر فلسفتُها للحياة إلا طهارة النَّظر ، ثمَّ تتهكَّم بالدُّنيا أكثر مما تهتمُّ لها ، وتستغني فيها أكثر ممَّا تحتاج ، وتستخرج السَّعادة لنفسها دائماً ممَّا أمكن ، قلَّ ، أو كثر .

وبكلِّ هذا تعمل الطُّفولة في حراسة الحياة الغضَّة ، واستمرارها ، ونموِّها ، ولولا ذلك لما زها طفلٌ ، ولا شبَّ غلامٌ ، ولا رأتِ العيون بين هموم الدُّنيا ذلك الرُّواء[1] وذلك المنظر على وجوه الأطفال يثبتان : أنَّ البراءةَ في النَّفس أقوى من الطَّبيعة .

وكلُّ ذلك هو أيضاً من خصائص الدِّين ، وبه يعمل الدِّين في تهذيب الحياة واطِّرادِها على أصولها القويَّة السَّليمة ، ومتى قوي هذا الدِّين في إنسانٍ ؛ لم تكن مفاسد الدُّنيا إلا من وراء حدوده ، حتَّى كأنَّه في أرضٍ ، وهي في أرضٍ أخرى ، وأصبحت البراءة في نفسه أقوى من الطَّبيعة .

ثمَّ قال : والعجيب : أنَّ اعتقاد المساواة بين النَّاس لا يتحقَّق أبداً بأحسن معانيه ، وأكملها إلا في قلبين : قلب الطفل لأنَّه طفلٌ ، وقلب المؤمن لأنَّه مؤمنٌ .

فقال العجوز (ن) : إنَّه لكما قلت ، ولعنة الله على هذهِ الشَّهوات الآدميَّة الباطلة ! فإنَّ الشَّهوة الواحدة في ألف نفسٍ لتجعل الحقيقة الواحدة كأنَّها ألف حقيقةٍ متعاديةٍ ومتنازعةٍ ، والطَّامعان في امرأةٍ واحدةٍ قد تكون شهوة أحدهما هي الشَّهوة ، وهي القتل ؛ ولعنة الله على الملحدين وإلحادهم ! يُزْرُون على الأديان[2]

---

(١) « الرواء » : المنظر الحسن .

(٢) « يزرون على الأديان » : يعيبونها ، ويستهزئون بها .

بأنَّها تكاليفُ ، وقيودٌ ، وصناعةٌ للحياة ، ثمَّ لا يعلمون : أنَّ كلَّ ذلك لصناعة الآلة النَّفسيَّة الَّتي تستطيع أن تحرِّك المختلفين حركةً واحدةً ، فما ابتُليتِ الإنسانيَّة بشيءٍ كما ابتليت بهذا الخلاف ؛ الذي يفتح من كلِّ نفسٍ على كلِّ نفسٍ أبواب التَّجنِّي ، ويجعل النُّفرةَ وسوء الظَّنِّ أقرب إلى الطَّبيعة البشريَّة من الألفة ، والثِّقة .

لقد جاء العلم بالمعجزات ، ولكن فيما بين الإنسان والطَّبيعة ، وبين الإنسان ومنافعه ، وبين الإنسان وشهواته ؛ فهل غيرُ الدِّين يجيء بالمعجزات العمليَّة فيما بين النَّفس والنَّفس ، وبين النَّفس وهمومها ، وبين ما هو حقٌّ ، وما هو واجبٌ ؟

* * *

قال المحدِّث : ثمَّ نظر إليَّ العجوز (ن) وقال : صِلْ عمَّك يا بنيَّ بالحديث الذي مضى ، فأين بلغْنا آنفاً من أمر التَّجديد ، والمجدِّدين ؟ وماذا قلنا ، وماذا قلت ؟ أما إنَّ الحماقة الجديدة ، والرَّذيلةَ الجديدة ، والخطأ الجديد ، كلُّ ذلك إنْ كان جديداً من صاحبه ؛ فهو قديمٌ في الدُّنيا ، وليس عندنا أبداً من جديدٍ إلا إطلاق الحرِّيَّة في استعمال كلِّ أديبٍ حقَّه في الوقاحة ، والجهل ، والخطأ ، والغرور ، والمكابرة .

قال الأستاذ (م) : وليس الظَّاهر بما يظهر لك منه ، ولكن بالباطن الذي هو فيه ، فمستشفى المجاذيب قصرٌ من القصور في ظاهره ، ولكن المجاذيب هم حقيقته ، لا البناء ، وكلُّ مجدِّدٍ عندنا يزعم لك : أنَّه قصرٌ عظيمٌ ، وهو في الحقيقة مستشفى مجانين ، غير أنَّ المجانين فيه طباعٌ ، وشهواتٌ ، ونزواتٌ ، وعلى هذا ما الذي يمنع الفجور المتوقِّح أن يسمِّي نفسه : الأدب المكشوف ؟

قال (ن) : وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية ؛ زعموا لك : أنَّ للفنِّ وقاحةً مقدَّسةً . . . وأنَّ (لا أدبيَّة) رجلِ الفنِّ هي (اللاأخلاقية العالية) .

قال الأستاذ (م) : فوقاحة الشَّهوة إذا استعلنت بين أهل الحياء ، وأهل الفضيلة ، ودعت إلى مذهبها ، كانت تجديداً ما في ذلك ريبٌ ، ولكن هذا المذهب هو أقدم ما في الأرض ؛ أو هو بعينه مذهب كلِّ زوجين اجتمعا من البهائم منذ خَلق الله البهائم .

قال (ن) : وقل مثل ذلك في متسخِّطٍ على الله ، وعلى النَّاس يُخرج من كفره

بين أهل الأديان أدباً جديداً ، وفي مغرورٍ يتغفَّل الناس ، وفي لصّ آراءٍ ، وفي مقلِّدٍ تقليداً أعورَ ـ كلٌّ واحدٍ من هؤلاء وأشباههم مبتلىً بعلَّةٍ ، فمذهبه رسالة علَّمته ، وأكثرهم لا يكون ثباته على الرَّأي الفاسد إلا من ثبات العلَّة فيه .

* * *

قال المحدِّث : وكنتُ من المجدِّدين ، فأرمضني[1] ذلك ، وقلت للعجوزين : إنَّ هذا نصف الصَّحيح ؛ فأمَّا النِّصف الآخر ؛ فهو في كثيرٍ من هؤلاء الَّذين ينتحلون الدِّفاع عن الدِّين ، والفضيلة ، نعم إنَّهم لا يستعملون حقَّهم في الوقاحة ، ولكنَّ القروش تستعمل حقَّها . . .

فضحك العجوز (ن) وقال : يا بنيَّ ، إنَّ الجديد في كلِّ حمارٍ هو أنْ يزعم : أنَّ نهيقه موسيقا ، فالحمار ، والنَّهيق ، والموسيقا كلُّ ذلك لا جديد فيه ، ولكن التَّسمية وحدها هي الجديدة ، ولو كان البرهان في حلق الحمار ؛ لصحَّ هذا الجديد ، غير أنَّ هذا التَّصديق ، والتَّكذيب هنا في آذان الموسيقيِّين ، لا في حلق حمارنا المحترم .

قال (م) : وزعموا : أنَّ رجلاً نصب فخّاً لصيد العصافير ، فجاء عصفورٌ ، فنظر من هذا الفخِّ إلى شيءٍ جديدٍ ، فقال : يا هذا ! ما لك مطموراً في التُّراب ؟ قال الفخُّ : ذلك من التَّواضع لخلق الله ! قال : فممَّ كان انحناؤك ؟ قال الفخُّ : ذلك من طول عبادتي لله ! قال : فما هذه الحبَّة عندك ؟ قال الفخُّ : أعددتُها لطيور الله الصَّائمين يفطرون عليها ؟ قال العصفور : فتُبيحها لي ؟ قال : نعم .

فتقدَّم المسكين إليها ، فلمَّا التقطها ؛ وقع الفخُّ في عنقه ، فقال وهو يختنق : إنْ كان العُبَّاد يَخنقون مثل هذا الخنق ؛ فقد خُلِق إبليسٌ جديدٌ .

قال (ن) : فالحقيقة : أنَّ إبليس هو الَّذي تجدَّد ؛ ليَصْلُح لزمن الآلات ، والمخترعات ، والعلوم ؛ والفنون ، وعصر السُّرعة ، والتحوُّل ، وما دام الرُّقيُّ مطَّرداً ، وهذا العقل الإنسانيُّ لا يقف عند غايةٍ في تسخير الطَّبيعة ؛ فسينتهي الأمر بتسخير إبليس نفسه مع الطَّبيعة . . . لاستخراج كلِّ ما فيه من الشَّرِّ .

---

(١) « أرمضني » : أرمضه الأمر : أوجعه .

قال (م) : ولكنَّ العجب من إبليس هذا ؛ أتراه انقلب أوربيّاً للأوربيِّين ؟ وإلا فما بالُه يخرج فيهم مجدِّدين من جبابرة العقل ، والخيال ، ثمَّ لا يؤتينا نحن إلا مجدِّدين من جبابرة التَّقليد ، والحماقة ؟

قال المحدِّث : فقلت لهما : أيُّها العجوزان القديمان ، سأنشر قولكما هذا ؛ ليقرأه المجدِّدون .

قال الأستاذ (م) : وانشر يا بنيَّ ! أنَّ الرَّبيع صاحب الإمام الشَّافعيِّ . مرَّ يوماً في أزقَّة مصر ، فنُثرت على رأسه إجَّانةٌ[1] مملوءةٌ رماداً ، فنزل عن دابَّته وأخذ ينفض ثيابه ، ورأسه ، فقيل له : ألا تزجرهم ؟ قال : من استحقَّ النَّار ، وصولح بالرَّماد ؛ فليس له أن يغضب . . . !

* * *

ثمَّ قالَ محدِّثنا : واستولى عليَّ العجوزان ، ورأيت قولهما يعلو قولي ، وكنت في السابعة والعشرين ؛ وهي سنُّ الحدَّةِ العقليَّة ، فما حسبتُني معهما إلا ثُلث عجوز . . . ممَّا أثَّرا عليَّ ، وانقلبتُ لا أرى في المجدِّدين إلا كلَّ سقيمٍ فاسدٍ ، واعتبرتُ كلَّ واحدٍ منهم بعلَّته ، فإذا القول ما قال الشَّيخان ، وإذا تحت كلِّ رأيٍ مريضٍ مرضٌ ، ووراء كلِّ اتِّجاهٍ إبرةٌ مغناطيسيَّةٌ طرفها إلى الشَّيطان .

وفرغنا من هذا ، فقلت للشَّيخين : لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم أيُّها الفيلسوفان ! أما كنتما في سنة ١٨٩٥ من الجنس البشريِّ ؟

* * *

(١) قصعة . (ع) .